الكاتب: **رضوان الأهدب**

مختبر قضايا التجديد في العلوم الإنسانية والإسلامية بالكلية المتعددة التخصصات - الناظور/ المغرب-

البريد الالكتروني: ridwanelahdeb@gmail.com

عنوان المقال: **الرّحلات الحجازية: رحلة أبي عبد الله الحُضَيكي أنموذجا**

تاريخ الإرسال: 2019/04/20 **تاريخ القبول:** 2019/09/17 **تاريخ النشر:** 2019/12/31

الرّحلات الحجازية: رحلة أبي عبد الله الحُضَيكي أنموذجا

Hijaz journey : the journey of Abu Abdulah al-Hodaiki as a model

الملخص بالعربية:

يعد أدب الرحلة أحد أهم فنون التأليف، وتشكل الرحلات الحجازية قطبا من أقطاب هذا الفن، وقد هدف هذا البحث إلى الكشف عن ملامح رحلة حجازية كان بطلها الفقيه المغربي "أبو عبد الله الحضيكي" الذي اشتاقت نفسه لزيارة البقاع المقدسة، فاستجاب له ربه وقيض له من يتكلف بنفقات حجه، فاغتنم الفرصة لتسجيل مشاهداته وأطوار رحلته في كتاب سماه: "رحلة إلى الحرمين".

فكيف نسج خيوط رحلته، وحبك تفاصيلها؟ وما هي ملامح رحلته؟ وما الفوائد التي يقطفها قارئ الرحلة..؟

لتحقيق هدف البحث سلك الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي تخلل العناصر الآتية:

- التعريف ببطل الرحلة
- التعريف بالكتاب الذي أرخ للرحلة
- بيان خطة الرحلة ومسارها
- إبراز الفوائد المتنوعة للرحلة

ثم خلص الباحث إلى بعض النتائج عرضها في الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الحجازية - حمد بن أحمد الحضيكي – الفوائد – الجوانب

Abstract :

The literature of the journey is one of the most important art of authorship, and Hijaz journeys constitute a pople of this art . The aim of this research was to reveal the features of a Hijazian journey whose hero was the Moroccan jurist Abu Abdullah al-Hodaiki, who longed to visit the holy sites, Allah responded to him and sent him someone to pay the charges of the pilgrimage. He took the opportunity to record his observations and stages of his journey in a book the called "A journey to the two holy Mosques"

So, how did he organize every detail about his journey ? What are the features of his journey ? What are the benefits beyond reading such a work ?

To achieve the purpose of this paper, the researcher a descriptive analytical method that contains the following elements :

- Characterizing the journey's hero
- Introducing the book that antedate to the journey
- Depicting the journey's plan and its pathway
- Highlight the various benefits of the trip

Then the researcher came up to some of the results that he presented in the conclusion, including :

- The journey of Abi Abdullah Al-Hodaiki is worshiping-scientific, wich indicates that worchip is only realized through science, and science must be followed by action.
- The journey of Abu Abdullah Al-hodaiki is an imprtant source of literary texts : poetry and prose.

- The style of Abi Abdullah Al-hodaiki is characterized by clarity, the beauty of expression, the simplicity of sentences, and avoiding affectation.
- His dependence on the communicative function as a technique of narration adopted in the literature of journey's in order to raise the reader's attention.
- The method of historical writing in the Al-hodaiki depends on observation and inseption, criticism, and scrutiny of description, and benefit from the books of Moroccan travellers.
- His interest in the Hadiths, which led him to employ only correct or accepted Hadiths, and to ignore the Hadiths that have been set.
- He was Maliki in Islamic jurisprudence and Acharii in the doctrine.

key words : Keywords : The Hijazian journey – Mohammed Bin Ahmed Al-hodaiki – Benefits – Aspects.

مقدمة:

تعتبر الرحلات الحجازية نوعا من أنواع أدب الرحلة العربية، التي اهتمت بوصف رحلات المسلمين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووصف مناسك الحج ومشاعر الحجاج وهم يؤدونها. وقد ازدهر هذا اللون من النصوص في الأدب العربي ازدهارا كبيرا، وانتشر عبر القرون.

وقد اهتم المغاربيون بهذا النوع من الرحلات، أذكر منهم من تونس: محمد الجودي التميمي القيرواني، محمد بن عثمان السنوسي.. ومن الجزائر: أبو حامد المشرفي، الحسين بن محمد الورثيلاني، أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، عبد الله بن عمر البسكري، محمد بن العامري التلمساني، أحمد بن قاسم البوني..، ومن المغرب: أبو عبد الله بن رشيد الفهري، محمد بن أحمد القيسي، أبو سالم العياشي، أبو العباس أحمد القدري.. ومن موريتانيا: الشيخ ماء العينين، محمد الأمين الشنقيطي، محمد حبيب الله الجكني، محمد محمود التركزي، محمد يحي الولاتي..[1]

وسأحاول في هذا البحث أن أسلط الضوء على رحلة الفقيه المغربي أبي عبد الله الحُضَيكي السوسي من خلال كتابه "**الرحلة الحجازية**".

- **التعريف بصاحب الرحلة:**

أبو عبد الله محمد بن أحمد الجزولي قبيلة، الحُضَيكي شهرة، الشاذلي طريقة، أحد أعلام سوس، ولد سنة 1118هـ، وبها نشأ ودرس، ثم طاف المغرب بحثا عن الشيوخ فأخذ عن عبد الله بن ابراهيم الجرسيفي، وأبي العباس الصوابي، وابن عبد القوي السلجامي، وأحمد بن محمد العباسي،وصالح بن محمد الحبيب السجلماسي، وأبي العباس الورزازي، وكَاتَب من لم يلقه فحصل على الإجازات الكثيرة من المغرب والمشرق، فأصبح مُسند سوس على عهده. اشتهر بعلمه الغزير ورواياته الواسعة، فجلس للإقراء و الإسماع واستجازه معاصروه، ورحلوا للأخذ عنه، وكثر بذلك تلاميذه، وتنوعت معارفه فشملت الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والنحو واللغة وطبقات الرجال.. وقد توفي رحمه الله سنة 1189هـ تاركا مؤلفات كثيرة منها:

- ✓ مناقب الحضيكي
- ✓ شرح الرسالة القيروانية
- ✓ مصابيح الإصابة في تعريف الصحابة
- ✓ شرح الهمزية
- ✓ شرح الشفا
- ✓ طبقات علماء سوس
- ✓ شرح البخاري
- ✓ مجموعة أجوبة فقهية
- ✓ مجموعة في أصول الطريقة الصوفية
- ✓ شرح الطرفة في اصطلاح الحديث
- ✓ والرحلة الحجازية التي بين أيدينا[2]

قال عنه صاحب الإعلام:" كان رحمه الله عديم النظير في زمانه، ورعا متبعا للسنة، عارفا بالسير والحديث، أخذ في كل فن من الفنون بنصيب، جمع بين شرفي العلم والولاية، وكانت معه هيبة، مأثره كثيرة وكراماته

خطيرة.[3]

ومما قيل عنه في شهادة بعض تلاميذه: "كان عديم النظير في زمانه ورعاً ونزاهة، وعلماً ونباهة، له اليد الطولى في علم السير والحديث وإليه المفزع في ذلك، وانفرد من أهل زمانه بمعرفة تاريخ الملوك والسير والعلماء وطبقاتهم ومعرفة أيامهم، بحيث لا يجارى في ذلك ولا يبارى، شديد الاتباع للسنة في سائر أحواله حتى في لباسه وأكله وفي أنواع العبادات والعادات، سالكاً مسلك ابن أبي جمرة وابن الحاج وأضرابهم، مثابراً على التعليم مكباً على المطالعة قائماً على البخاري وغيره من كتب الحديث."[4]

- **تجنيس رحلة الحضيكي:**

تنتمي رحلة أبي عبد الله الحضيكي إلى جنس الرحلة الحجازية كما يظهر من عنوانها، وقد برع أهل الغرب الإسلامي قديما وحديثا في هذا الجنس الأدبي، ولعل إطلالة سريعة على كتاب "المختار من الرحلات الحجازية" لمحمد بن موسى الشريف، أو كتاب "الرحلة إلى مكة: مائة رحلة مغربية ورحلة" لعبد الهادي التازي تكفينا لمعرفة تفوق المغاربة في هذا الفن.

- **التعريف بالكتاب[5]:**

صدر كتاب الرحلة الحجازية لأبي عبد الله محمد الحضيكي عن مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى عام 2011م- في 2000نسخة -، حققها الدكتور عبد العالي لمدبر معتمدا على نسختين مخطوطتين في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، مكتوبتين بخط مغربي مقروء، وتضم النسخة الاولى 27 ورقة، مقياس: 22×17 سم، وتضم النسخة الثانية 32 ورقة، مقياس 23×18[6]، وهما تبتدئان بقول الناسخ: "هذه رحلة الشيخ الولي الكبير الزاهد الصوفي العلامة الشهير أبي عبد

الله محمد بن أحمد الحضيكي، ثم الأيسي... وتنتهي بقوله: وأخبار مصر لا تنحصر، ولقد وضع أصحاب التاريخ عليها تآليف عديدة في عجائبها اللذيذة".

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الوثائق التي توثق لرحلات العلماء المغاربة المتأخرين نحو الحجاز، فكان مُثريا لمكتبة أدب الرحلات.

- **ظروف الرحلة ومقصدية التأليف:**

كان الشيخ الحضيكي شديد الحرص على أداء فريضة الحج، إلا أن الخصاصة منعته، ولم يجد إلى ذلك سبيلا، فاستبدله بالشوق والحنين، واستعاض عنه بالتعلق الروحي ولسان حاله ينشد:

إني مشوق إلى أرض البقيع عسى * أرى ضريحك من قبل انقضا أجلي[7]

فاستجاب الله لاشتياقه ومناجاته؛ إذ تطوع ابن عمه - بعد مرض ألمّ به - وتكلف بمصاريف الرحلة في آخر لحظات استعداد الركب للخروج[8]

وقد كان الهدف الرئيسي من تسجيله لمحطات هذه الرحلة المباركة هو شوقه لذكر مشايخه، خاصة وأنه مولع بهذا الجانب كما يظهر من تآليفه: مناقب الحضيكي، والفهرست، يقول مصرحا بذلك: "المراد ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر، رجاء من الله عظيم البركة، وشمول الرحمة عند ذكرهم، وانخراطا في سلكهم، لوفور محبتي لهم، ولعظيم شوقي ولعظيم شوقي إليهم، فالمرء مع من أحب، تأنيسا لنفسي وتأسيا بهم.."[9]

وبهذا جمع الشيخ الحضيكي بين الرحلة في طلب العلم، والرحلة لأداء مناسك الحج. فجاءت هذه الرحلة في أسلوب سردي وصفي رفيع، يقوم على الإيجاز والاختصار.

- **المسار العام للرحلة:**

انطلق الرَّكب سنة 1152هـ/1740م، نحو سلجماسة، فالقنادسة وبلاد فكيك، ليسلك الطريق المعتاد عند الحجاج، مرورا بأقاليم الشمال الافريقي كالنخيلة وعين ماضي، والأغواط، وبسكرة، وقابس، وجربة، وطرابلس، وبرقة.

ولما وصل الركب مصر، توقفوا بمدن وقرى كثيرة في طليعتها: المنصورية، وبِلاق، والسويس، ومنها عبروا إلى الجزيرة العربية، فمروا بمراكز كثيرة منها العقبة، وآيلة، والشرفات، ومغارة شعيب، والحوراء، والنّبَط، والينبع، وبدرحنين، والبزوة إلى أن وصلوا

قرية رابغ حيث محل الإحرام، واستأنفوا مسيرهم عبر اتجاه الجحفة، وعسفان إلى أن دخلوا من أعلى مكة، فشرعوا في أداء مناسك الحج، وبعد ذلك قصدوا زيارة المدينة المنورة وتحدث عنها صاحبنا حديثا طويلا.

وعبر نفس الطريق عاد الحضيكي مع بعض رفاقه من طلبة سوس حيث توقف بمصر، والتحق بالأزهر لمتابعة الدراسة. فكان الأزهر والنيل آخر ما تحدث عنه في رحلته.

- **فوائد الرحلة:**

لاشك أن أهم فائدة لهذه الرحلة الحجازية تتمثل في تحقيق الاتصال الثقافي بين المغرب والمشرق، وتجسيد الوحدة الإسلامية بينهما. ولعل المتصفح لها سيستفيد من تلك المعلومات والأخبار التي حوتها الرحلة في مختلف الجوانب:

- الجانب العلمي:

لم يكن من عادة الرحالة المغاربة أن يصدروا مؤلفاتهم الرِّحلية بجرد أسماء شيوخهم وأساتذتهم، غير أن الحضيكي كان بِدعا في ذلك - ولعل هذا كاف في إيضاح الخلفية الصوفية التي يصدر عنها - فبدأ رحلته بالحديث عن شيوخه المغاربة كأبي العباس الصوابي، وعبد الله الرسموكي، ومحمد بن الحسن الحامدي، وأبي العباس الإبراهيمي، ومحمد الدرعى، ومحمد بن علي الإندوزالي، والحسين الشربيلي وغيرهم[10]. وخلال الرحلة يستعرض ما استفاده من شيوخ المشرق كالشيخ أحمد الإسكندري الذي حضر عنده مختصر خليل ورسالة بن أبي زيد ...، وأحمد العماوي الدمرداشي الذي أخذ عنه الخزرجية على علم العروض، وأصول الفقه لابن السبكي، والشيخ الجوهري الذي حضر عنده السلم للأخضري، والقائمة طويلة[11].ذ

إن الحضيكي وهو يذكر شيوخه لا يكتفي بتعريف القارئ بأسمائهم، بل يصور مناقبهم، ويصف أخلاقهم، ويقف عند الأحداث والمحن التي أثرت في مسيرتهم، كل ذلك من أجل التأثير في المتلقي، وشحذ همته، وشحنه بالطاقة الإيجابية، ومده بسطور من صبر العلماء.

- الجانب الجغرافي:

لا تكاد تخلو نصوص الرحلة بشتى أنواعها من إشارات جغرافية تتعلق ببلاد الانطلاق والعبور، بما أن الرحلة انتقال في الزمان والمكان، وبهذه الشاكلة تحضر في رحلة الحضيكي معطيات جغرافية مهمة عبر أوصاف ومشاهد يسوقها الكاتب بين الفينة والأخرى، فإلى جانب وصفه لأماكن معلومة عند كثير من الناس كالحرم المكي، والمسجد النبوي وقبور الصحابة...فإنه يعرف بمختلف البلاد التي مرت بها الرحلة ويذكر سبب تسميتها، ويصفها وصفا مختصرا كوصفه لسجلماسة[12]، والقنادسة، وفكيك، وباسمغون، والغاسول، والنخيلة[13]، وقرية عين ماضي التي يصف جغرافيتها فيقول عنها: "فيها أجنة تين وعنب، محفوفة بالحوائط والزروب، وللقرية كذلك سور ممنوع[14]". وعن مدينة جربة و طرابلس يقول:" فارتحلنا وسرنا بساحل البحر، ومدينة جربة على يسارنا، وسط البحر لايُعبر إلا بالسفن، وهي ذات نخيل وفواكه ومياه كثيرة...ونزلنا بعد أيام قرى بها نخيل يقال لها: الزوارات الغربيات إلى ناحية الغرب، والشرقيات إلى ناحية الشرق، وهي مبدأ عمالة طرابلس، وقابس وتوزر من عمالة تونس، وبسكرة من عمالة الجزائر...ثم نزلنا طرابلس، مدينة كبيرة على شاطئ البحر، تضرب الأمواج بسورها، كثيرة المزارع والبساتين والفواكه بأنواعها، تشتمل على أسواق ومساجد وجوامع.."[15]

ولا ينسى حين يمر ببعض المناطق أن يحيل إلى الآيات القرآنية المرتبطة بها، وصنيعه هذا أسميه بالتفسير الجغرافي والميداني للقرآن الكريم كقوله: "وهناك قرية خربت، وهي أيلة، قيل: هي المراد بقوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾[16].

- الجانب التاريخي:

يعتبر التاريخ مكونا مهما من مكونات الخطاب الرِّحلي، ونلمس في رحلة الحضيكي معطيات تاريخية مهمة سواء كانت تتعلق بالأشخاص أو الأماكن، ولهذا نجده يكثر من ذكر تراجم أشياخه من المغاربة والمشارقة، كما تحدث عن بعض المواقع التاريخية التي أجاز التبرك بها "كالبيت الذي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جعلته الخيزران جارية المهدي مسجد يصلى فيه، وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذي يقال له: زقاق المولد. ومنزل خديجة عليها السلام، الذي كان يسكنه الرسول صلى الله عليه وسلم وخديجة، وفيه ولدت أولادها منه، وفيه توفيت خديجة، ولم يزل النبي مقيما به حتى هاجر، فأخذه عقيل، ثم اشتراه منه معاوية، فجعله مسجدا يصلى فيه وبناه."[17] وكذا بعض الآثار النبوية، فيقول

عن منبر النبي صلى الله عليه وسلم: "..فقد احترق في جملة حريق المسجد سنة أربع وخمسين وستمائة، ودثر وأخذ ما بقي من أعواده، فعملت أمشاطا للتبرك، ولم يبق له أثر الآن بالكلية"[18]، كما تحدث عن مشاهد البقيع وقبور الصحابة وآل البيت النبوي[19]، وعدد المساجد التاريخية - مبينا سبب تسميتها - التي مرّ عليها في طريقه سواء بمكة كمسجد دار الأرقم، ومسجد الجن، ومسجد الشجرة، ومسجد الكبش...[20] أو بالمدينة كمسجد قباء، والجمعة، الفضيخ، وقريظة، وبني ظفر، والإجابة، والقبلتين، ومسجد الفتح.[21]

- الجانب الاقتصادي:

أشار الحضيكي إلى بعض المسائل الاقتصادية كصرف الدراهم إلى ذهب تبراً أو مسكوكاً مبرزا فائدة هذا الصرف.[22] وكذا تلك البضائع المعروضة في الأسواق التي مر عليها كالكحل، والشب، والعطرية، والكبريت، والمشط، والمرآة، والجلود المدبوغة، والنعال، واللحم، والخضر، والفواكه...ورحالتنا حين يستعرض هذه السلع فإنه ينبه إلى ضابط يراه مهما في المجال الاقتصادي وهو: "فلا تبيعن شيئا من ذلك للنساء المفتنات، واحذر ما تفعله عامة الحجاج وسفلتهم من مخالطتهم مع نساء العرب، ومعاملتهم لهن، واختلائهم بهن، ومضاحكتهم إياهن، إياك ! وارتقب الشاهد ربك".[23]

في هذا النص ينتقد الحضيكي تصرفات مشينة لبعض الحجاج قد تخدش مروءتهم، وتؤثر على صحة نية حجهم. أما الضابط الاقتصادي الذي نبه إليه فهو ألا يكون هدف الربح المادي على حساب قيمتي العفة والحياء، وللأسف هذا الضابط هو ما يفتقد إليه التجار اليوم حيث يهتمون بالجانب المادي على حساب الأخلاق ودون مراعاة مآل وآثار بضائعهم.

- الجانب الاجتماعي:

ضمّن الحضيكي رحلته جملة من الارتسامات الاجتماعية التي لاحظها على أهل بعض المناطق، كقوله عن أميري مصر والشام وأهل مكة:" وقد كانت الغيرة والافتخار بين أميري مصر والشام، كل يفاخر صاحبه بالقوة، والشدة، وكثرة العدد، وسعة الأموال من القناطر المقنطرة، غير أن الشامي أكثر مالا، وأسخى من بذل، وأحنى على المساكين من المصري...وأهل مكة: أهل جود وكرم، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وألوانهم إلى الأدمة واضحة.."[24] ولا ينسى صاحبنا أن يلفت نظرنا إلى بعض العادات الاجتماعية الغالبة على بعض المناطق

كقرية عين ماضي:" ويخرج النساء للتسوق مع الحجاج، ولايبيع ولايشتري في تلك البلاد إلا النساء"[25]، وكذا ظاهرة غلبة النساء وضعف التدين:" وانت ترى نساءهم كذلك متبرجات بزينتهن، لا حياء معهن ولا دين، متغلبات عليهم."[26] بل إنه يسجل أخص خصوصياتهن فيقول:" وحكي أنهن لا يصلين أصلا ولا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة، مخافة من الماء مع أنهم ادعوا الشرف."[27]

- الجانب النُّصحي:

تعد الرحلة تجربة فريدة يعيشها الرحالة، ولاشك أن النصيحة تكون مؤثرة وفعالة إذا تمخضت عن تجربة، ومن هنا لم يبخل كثير من الرحالة على قرائهم بالنصائح والتوجيهات، هكذا نجد صاحبنا الحضيكي في بعض المواضع ينصح العازمين على الحج بأن يختاروا الرفيق قبل الطريق، وأن يكون هذا الرفيق قويا، أمينا، صحيحا، وفي ذلك يقول: "ثم اعلم أيها الأخ أن من الأهم في ذاك الطريق أن تستعد وتختار أصحابا أمناء أقوياء أصحاء تعاشرهم ثلاثة وأنت رابعهم[28]، وفي الحديث: «التمس الرفيق قبل الطريق» ومرافقة الأخيار ومصاحبتهم سنة العقلاء."[29]

كما ينصح قراءه فيقول:"..وعليك أيها الأخ بمكارم الأخلاق، وحسن المعاشرة والصبر، وتحمل الأذى في طريقك مع الحجاج، والخدام والجمالين، فإن هذا الطريق طويل، ينال فيه المشقة القوي والضعيف، يحتاج إلى زيادة صبر واحتمال، لاسيما مع البداوة الجمالين، فإنهم يحرصون على استخراج أدنى شيء منك، وارع دينك، وصن عرضك ومالك، واحفظ مروءتك، ولا تتعاط معهم المساوئ، فإنهم أشحاء على الخير، وألسنتهم حداد، ووفّ إليهم كراءهم، ثم أحسن إليهم ولو بقليل من طعامك، تفز بالأجر من الله، ومن الرحمة منهم، وألن جانبك ولاتغلُظ".[30]

- الجانب الوجداني:

من أهم ما يميز الرحلات الحجازية كونها مفعمة ومثقلة بالجانب العاطفي والوجداني، حيث يعمد الرحالة إلى وصف مشاعره الشخصية، ومشاعر الحجاج وهم يؤدون مناسك الحج، أو يمرون على الأماكن المقدسة، ورحالتنا الحضيكي هو الآخر نحى هذا

المنحى في كتابه، نحو وصفه لحظة الوصول البيت الحرام: "ودخلنا من أعلى مكة مسرعين نحو البيت في شدة الفرح والخجل.."[31].

نلاحظ أن الحضيكي عبّر عن شعورين مختلفين اختلجا صدره وهما: الفرح والخجل؛ فقد أحس بالفرح عند رؤيته للكعبة وهو إحساس طبيعي يحس به كل من يعظم ويحب شعائر الله، وفي الوقت نفسه أحس بالخجل، وهو ايضا إحساس طبيعي بالنسبة لكل مؤمن يستحيي من الله، ويعترف بتقصيره في جنبه عز وجل، هذا التقصير الذي ما انفك صاحبنا يشعر به ويتمثل في شأنه شعرا:

وما لي لا أنوح على خطائي * وقد بارزت جبار السماء
قرأت كتابه وعصيت سـرا * لعظم بليتي ولشؤم رأيي
بلائي لا يقاسـيه بـــلاء * وآفاتي تدل على شقائي
فيا ذُلّي إذا ما قال ربي إلى * النيران سوقوا ذا المرائي
فهذا كان يعصيني مـرارا * ويزعم أنه من أوليـائي

وعند السعي بين الصفا والمروة لا يخفي الحضيكي بهجة الناس وسرورهم في هذا اليوم، فيقول: "ولا يخفى عليك أيها الأخ حال الناس ذلك اليوم، من بسط وابتهاج، واستبشار وانشراح وابتهاج.."[32]

وعن حال الناس يوم عرفة يقول: "ثم إن الناس في غاية المسألة، وكثرة الإلحاح، والتضرع والإلحاف على ربهم، وجلين خائفين.."[33]

- الجانب الفقهي والحديثي والعقدي:

إذا علمنا أن الامام الحضيكي يعتبر من علماء المذهب المالكي، وله مؤلفات في فن الفقه، فإننا لا نستغرب إيراده في رحلته لكثير من القضايا الفقهية المتعلقة بمناسك الحج وآدابه، واستدعائه لأمهات الكتب الفقهية المالكية كالمدونة والعتبية، من ذلك قوله: "سئل مالك هل يقرأ الرجل في الطواف بالبيت الواجب عليه ويتحدث مع الرجل؟ فقال: لا أحب ذلك..وفي المدونة: كان مالك يوسع فيما خف من الحديث في الطواف، ولا ينشد فيه شعرا."[34]

ولتقف على عنايته بالأحكام الفقهية تأمل ما ذكره عن اختلاف الفقهاء في حكم الطواف بعد الصبح والعصر.[35]

ولا يغفل صاحبنا عن الاستشهاد بالأحاديث النبوية كلما سنحت له الفرصة فمثلا عندما يتحدث عن فضل مكة يدعم قوله بالحديث المتفق عليه: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والارض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده."[36] ويبدو لنا جليا عنايته بالصناعة الحديثية عندما يستعرض أقوال المحدثين وهم يتكلمون في الحديث من جهة تضعيفه وتصحيحه، كما صنع مع أحاديث الحجر الأسود.[37]

وبالرغم من أن الحضيكي لم يصرح في كتابه بانتمائه إلى الأشعرية إلا أنه يمكن استشفاف ذلك من بعض أقواله، فمثلا عند ذكره لحديث ابن عباس الموقوف: "الركن الأسود يمين الله يصافح به عباده، كما يصافح أحدكم أخاه" فإنه يستشهد بشرح ابن فورك: "أن الحجر من نعم الله تعالى؛ لأن العرب تعبر عن النعم باليمين واليد، جعله الله نعمة وسببا للثواب والأجر لمن صافحه، وقربة إليه سبحانه لمن استلمه."[38]

هذا الشرح هو شرح تأويلي لصفات الله تعالى، ومن المعلوم أن الأشاعرة يؤولون الصفات الخبرية كتأويلهم اليد بالنعمة والقدرة، خلافا للسلف الذي يثبتونها من غير تكييف أو تشبيه، ويفوضون العلم بمعناها إلى الله تعالى.

وفي تعليقه على أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول تقبيل الحجر الأسود، يستشهد بكلام القاضي عياض: "وإن تقبيل الحجر ليس عبادة له بل لله تعالى بامتثال أمره فيه كما أمر بسجود الملائكة لآدم، وشرع مع ذلك التكبير للناس إظهارا أن ذلك تذللا لا لغيره، وأن التحسين والتقبيح من قبل الشارع لا من قبل العقل.."[39]

ومن المعلوم أن مقالة الأشعريين في مسألة التحسين والتقبيح؛ أن العقل لا يدل على حسن شيء، ولا على قبحه قبل ورود الشرع، وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع.

خاتمة:

كل هذه الجوانب تطرق إليها بأسلوب مبسط، موجز، سهل، سلس، فكانت هذه الفوائد القيمة من تلك الرحلة الشائقة.

وفي ختام هذا البحث يمكن تسجيل النتائج الآتية:

- رحلة أبي عبد الله الحضيكي تعبدية – علمية، وهو ما يدل على أن العبادة لا تكون إلا عن علم، والعلم لابد أن يتبعه العمل.

- تعتبر رحلة أبي عبد الله الحضيكي مصدرا مهما للنصوص الأدبية شعرا ونثرا.

- تميز أسلوب أبي عبد الله الحضيكي بوضوح الفكرة، وجمال التعبير، وبساطة الجملة، والسلامة من التكلف والتصنع.

- اعتماده على الوظيفة التواصلية كتقنية من تقنيات السرد المعتمدة في أدب الرحلات من أجل إثارة انتباه القارئ.

- منهج الكتابة التاريخية عند الحضيكي يعتمد على المعاينة والمشاهدة، والنقد، ودقة الوصف، والإفادة من كتب الرحالة المغاربة كابن رشيد السبتي.

- علو كعب الحضيكي في الجانب الفقهي المتمثل في استحضار أقوال الفقهاء، وأمهات المصادر الفقهية.

- اهتمامه بصناعة الحديث مما جعله لا يوظف إلا الأحاديث الحسنة أو الصحيحة، ويتجاهل الأحاديث الموضوعة.

- مسألة الولاء والبراء جعلت الحضيكي يدعو على بعض الرهبان في طريق رحلته باللعنة، والمفروض أنه لا تلازم بين الولاء والبراء وبين الدعاء على المخالفين في العقيدة، بل المطلوب الدعاء لهم بالهداية.

الهوامش:

(1) للاطلاع على أسماء الرحالة المغاربين راجع فهرست: الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الاعلام في البلد الحرام، حفناوي بعلي، دار اليازوري، ط 1، 2017م، وانظر فهرست: الرحلات في المغرب الأقصى: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز، عواطف نواب، دارة الملك عبد العزيز، بدون طبعة، سنة النشر: 2008م، وأدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الحسن الشاهدي، منشورات عكاظ، الرباط، بدون تاريخ وبدون طبعة.

(2) انظر ترجمته في: فهارس علماء المغرب منذ النشأة الى ق 12هـ، عبدالله المرابط الترغي، ط 1، 1999م، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، ص:409 وما بعدها، وانظر مؤلفاته في: سوس العالمة، محمد المختار السوسي، طبعة: 1960م، مطبعة فضالة، المحمدية، ص:197

(3) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس السملالي، ط 2: 1993م، المطبعة الملكية، الرباط ،ص:82/6 –بتصرف -

(4) فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1982، 352-351/1

(5) توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: د/996/2،انظر: مكة المكرمة في مائة رحلة مغربية ورحلة، عبد الهادي التازي، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي، الرياض،2005م، ص:371

(6) الرحلة الحجازية: محمد بن أحمد الحضيكي، تحقيق: عبد العالي لمدبر، ط1،2011م، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط، ص:45.

(7) المرجع نفسه، ص:76

(8) انظر قصة ذلك- وكيف عبر عن سعادته الغامرة بهذا الخبر الذي لم يكن يخطر على باله- في الرحلة الحجازية، ص: 76، 77

(9) المرجع نفسه، ص:57

(10) المرجع نفسه، ص:59- 64 ومابعدها

(11) المرجع نفسه، ص:177 وما بعدها

(12) انظر المرجع نفسه، ص:80

(13) نفسه، ص:83

(14) نفسه،ص:84

(15) نفسه، ص:88

(16) سورة الأعراف، الآية 163

(17) نفسه، ص: 137

(18) نفسه،ص: 157

(19) انظر المرجع نفسه، الصفحات: 157- 162

(20) المرجع نفسه، ص:137-138

(21) المرجع نفسه، الصفحات: 162- 164

(22) انظر المرجع نفسه، ص:81

(23) المرجع نفسه

(24) المرجع نفسه، ص:105

(25) نفسه، ص:84

(26) نفسه، ص:84

(27) نفسه، ص:84

(28) خص الحضيكي عدد المرافقين في الرحلة بأربعة حتى يسهل تدبير شؤون الرحلة، ويقل الخلاف بينهم..وهذا يدل على تجربته وخبرته بأمور السفر

(29) نفسه، ص:80

(30) نفسه، ص:89-90

(31) نفسه، ص: 99

(32) نفسه، ص: 100

(33) نفسه، ص: 102

(34) نفسه، ص: 121- 122

(35) انظر المرجع نفسه، الصفحات: 126-127-128

(36) نفسه، ص: 106

(37) انظر المرجع نفسه، الصفحات: 111-112-113

(38) نفسه، ص: 112

(39) نفسه، ص: 113